المقــص الـــردي

Tijeras malas
Revista de dialectologia
y tradiciones populares
Tomo : XXXVI - 1981

حكاية عربية في الأدب الإسباني

المقص الرديء

ثمة ثلاث مجموعات من أمثال قشتالية ، أولاها مجموعة بدرو باييس ، ومجموعة هرنان نونييث ، ومجموعة جونثالو كورياس تحوي المثل التالي : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» . ويضيف كورياس من عنده صيغة أخرى للمثل تغير السياق، وتنسب للآلة إيذاء نفسيا قاسيا : «المقص الرديء جعل زوجي أعور» . وكما نرى في التو ، فإنه يفتقد المعنى ، حتى المعنى الثاني أو الثالث الناجم من الشعر الذي يحاول في كثير من الأحيان تسويغ مثل لم يوضع موضعه . ولم يشرح المثل باييس ولا هرنان نونييث ، ولا حتى كورياس في واحدة من الطبعتين المستقلتين بسبب الترتيب الهجائي ، وعبر ما يزيد عن مئتي صفحة .

وعلى العكس ، فإن المعنى محدد تماما في «ذخيرة» سباستيان دي كوباروبياس الذي قيد المثل في مادة المقص ، وشرحه بما يلي :

المثل : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» . إنها عادة شائعة جدا عندما لا يقطع المقص جيدا ، فإن القاص يحاول المعاونة – عبثا – باعوجاج الفم ، كالذي يحاول أن يقذف الكرة بيده ، فيميل بجسده نحو تلك الناحية حيث يريد لها أن تعود» .

أما قاموس الشواهد في مادة «الفم المعوج» فيقول : «إنه الشخص المعوج الفم ، والمادة مركبة من المنعوت فم والنعت معوج ، ويستدل على ذلك ببيتين من شعر

كيبيدو ، وكذلك يأتي في السياق بمثلنا نحن : «المقص الرديء جعل فم أبي معوجا» مثل لمن يقص بمقص رديء ، وبما أنه يبذل جهدا فإنه يعوج فمه ، وتدل مع طول الممارسة على عادة رديئة ، وتظل طبيعة سادكة بالشخص .

وعلى هامش المثل عثرت على إشارات لاعوجاج الفم ، كعمل لا جدوى منه لمساعدة المقص (وكبعض من يضغط بشفتيه على أسلة لسانه أثناء عمل شاق أو دقيق) في بعض المصادر الإسبانية . النصوص الثلاثة التي عثرت عليها مصادفة في قراءاتي تسخر من هذا السلوك .

لنتذكر الموشحات التي أرسلها القائد رومان إلى الشاعر الشهير ، والمرتد أنطون دي مونتورو الخائط القرطبي ، وهي مليئة بالطعن الناقد ، وذات قيمة عالية ، كما هو شأنها في ديوان الأهاجي ، يرجوه القائد بعد تجريحه بقسوة - وبكل ما هو مقدس - أن يهجر الشعر ويعود إلى صناعته خائطا (Alfayate) ، ويردد هذا الغرض الفلكلوري الذي هو نواة مثلنا فيقول :

إنك تفصّل سعيدا
عشرين سلة من بقايا الثياب
فلتفصل وأنت خبير
بإبرة جيدة ، وقمع خياطة جيد
فلتفصل إزارا ناعما
وجبة Jubón ، وريشا
فصل وأنت تعوج فمك
حين تقطع بالمقص .

وفي رواية «الكلب والحمى» لبدرو دي اسبينوسا التي يطلق عليها مؤلفها اسم «رواية غريبة» يبرز بين سلسلة الشخصيات الرذلة – أولئك الموسومون بتلك العادة التقليدية للخياطين . فشورمبو «كلب ذو خصال ، فيلسوف كلبي ، ربيب قصور ، في تأمله الحكيم يقول هكذا :

ليعتقني الله من أولئك الناس الطيبين
بسبب الخصلة السيئة ، يشربون مثل الضفادع
ويتحدثون مثلها ، يقطعون بسيوفهم البيضاء
غير الحادة أصابعهم ، ولا يقطعون اللفت
ألسنتهم أطول من أيديهم ، أفواه معوجة بسبب
قطعهم بمقصات مثلومة ، خنازير ، يجأرون مدمدمين
بالشكوى حتى بعد مللهم .

في كتاب «الضرائب العامة والعاجلة» الذي أملاه دون فرانثيسكو دي كيبيدو إي فيجاس ، والذي احتذاه قصدا صديقه اسبينوسا طريقة وأسلوبا في مصنفه الصغير الذي أشرت إليه من قبل بقليل ، يحدث ذلك أيضًا – دون إشارة واضحة إلى الخائطين ذوي المهنة – لذوي العاهات من بين أشخاص آخرين من أصحاب هذه المهنة ، يقول كيبيدو :

«اللاعبون بالصوالجة إذا حدث لهم أن يعوجوا الفم ، فإنهم يعوجون معه الجسد ، ظانين أنهم كما يصنعون هكذا يصنع الفم ، نعترف لهم بأنهم قد أصبحوا رهبانا ، كذلك نلفت النظر إلى أولئك الذين يعوجون أفواههم حين يهدمون شيئا ما، وكذلك الذين يحملون أقنعة المهرجين أو شيئا من هذا القبيل فإنهم يصنعون من

داخلها حركات واقعية أو حقيقية ، يبدو لهم كأنهم يرون من خارجها وليس الأمر كذلك . وكذلك الذين يفتعلون حين يقصون بمقص رديء أو بآلة أخرى فإنهم يعوجون الفم أو يخرجون لسانهم معوجين الفم كذلك .

كل هذه «العادات الشائعة جدا» كما يصفها كوباروبياس والمبتدعة والمشروحة بقلم كيبيدو في الفقرة السالفة ، اعوجاج الفم حين القطع بمقص رديء (أو حسن على حد سواء) هو الذي - فيما يبدو - لفت الانتباه الشعبي أكثر ؛ ربما لأن هذا العمل قسط شائع في كل الصفات الواضحة ، وبالطبع لدى بعض الناس ، وهم على كل حال كثيرون لشد الانتباه إلى هذا العمل المضحك وغير الضروري : اعوجاج الفم لدى استخدام المقص ، المشهد الذي يدوم داوم القص نشأ عنه بلا ريب باعث على السرور والسخرية ، وفيما بعد تولدت عنه أسطورة أن القص الكثير وبخاصة بمقص رديء أو مثلوم ينجم عنه في النهاية اعوجاج الفم وتشويهه دون إمكان البرء ، ويعتبر الخياطون (وإن اقتصر الأمر على ذوي المقصات الرديئة منهم) الفئة الرئيسية المضارة بهذا الداء ، إنه تشوه خاص بالمهنة . ومن هنا ولد المثل بصورة مختلفة كما هي موجودة في صورتها المتغيرة لدى كورياس .

لم يستحق أي نص من النصوص المذكورة من النقطة التي نعالجها أي تعليق من القائمين على نشرها ، لا أدري هل اعتبروها شيئا شائعا جدا ، أو لأنهم يقارنون هذه النصوص ونصوصا أخرى فيما بينها وبين هذا المثل .

ومهما يكن من أمر فإنني أعتقد أن إشارة ما ضرورية على هامش النص ، إذ إن الباعث الفلكلوري - لا أدري بدقة هل هو إسباني لا أظن - كان حيا جدا في إسبانيا الإسلامية ، كان موجودا إلى درجة أنه استخدم أساسا ذخيرة شعبية لحكاية فلكلورية جمعها الفقيه الأديب الغرناطي - في غرناطة النصرية - ابن عاصم المتوفى سنة 1426 م .

يقول النص :

ومر رجل ومعه ابن له صغير برجل يقطع بمقص وهو يعوج فمه ، فقال لـه ابنه: يا أبت هذا مقصنا الذي تلف لنا ، فقال أبوه : ومن أين علمت ذلـك ؟ قال : لأنه يعوج فمه كما كنت أنت تفعل .

هذا الغلام هو ابن عم غلام آخـر (ذكـي مثلـه في إطـار سـذاجته) بطـل نـادرة فلكلورية عربية أخرى ولجت الأدب مبكرة ، ووجدت أيضًا مكانـا في كتـاب ابـن عاصم ، وفي كتاب لاثاريّو دي تورمي .

لنعد مرة أخرى إلى موضوعنا :

مع قراءتي المتعددة في كتب عربيـة عـبر سـنوات طـوال ، لا أذكـر أننـي قـرأت الحكاية في كتاب آخر ، ولا حتى في كتاب آخر خارج نطـاق الأدب العـربي ، وعـلى كل حال لم يكن في إمكاني مراجعتها في : "Motif – Index de Stith Thompson"

ربما ينبغي أن نفكـر في أن الحكايـة ظلـت محفوظـة ومنـسية في كتـاب الأديـب الغرناطي ، كما ظل الأثر في باب الأمثال ؛ لأنني أعتقـد أن المثـل لم يـزل حيـا إلى أن أخذه رودريجيث مارين ، ومنذ ما يزيد على نصف قرن بقليل كانت صـورته هكـذا «المقص الرديء جعل فم الخائط معوجا» .

كـتب للمترجــم

*** الترجمة :**

- خاتمان من أجل سيدة ـ جائزة الدولة في الترجمة .
- خمس مسرحيات أندلسية .
- مقامات ورسائل أندلسية .
- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية [حائز جائزة ابن تركي لترجمة الشعر] .
- فصول من الأندلس في الأدب والنقد والتاريخ .
- تأثيرات عربية في حكايات إسبانية .
- قلبان وظل .
- حقول عدن الخضراء .

*** الشعر :**

- الخوف من المطر .
- هدير الصمت .
- لزوميات وقصائد أخرى .
- مقام المنسرح .
- أغاني العاشق الأندلسي . (حاز جائزة مؤسسة يماني الثقافية) .
- زهرة النار . (حاز جائزة مؤسسة البابطين) .

*** التحقيق :**

- حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي .

*** الدراسات :**

- المازني شاعرا .
- أدب ونقد .
- دراسات نقدية .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ١ .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ٢ .
- شعراء ما بعد الديوان جـ ٤ .
- في الشعر العماني المعاصر .
- القونت لوقانور – دراسة وترجمة .
- حديث الشعر .
- كتابات في النقد .
- في الحديث النبوي – رؤية أدبية .